٣٠ ــ ضيق

أريد أن أعود إلى ذلك الحديث الذى تحدثت به إلى القراء أول أمس عما يظهر فى حياتنا العامة من ضيق النفوس وحرج الصدور ، والتبرم بأهون الأشياء وأيسر الأمور . فقد وقع هذا الحديث فى نفوس جماعة من الأصدقاء والخصوم موقعا دعاهم إلى التعليق عليه ، والاشتراك فيه . وكان ما كتبوه دليلا واضحا حقا على أنى لم أخطىء حين ذكرت هذه الظاهرة الطارئة فى حياتنا العامة ، وحين ذهبت ألتمس لها العلل والأسباب ، وأدعو إلى مقاومتها والتخفف منها ، فقد ظهر ضيق هؤلاء الأصدقاء والخصوم بما يكرهون إلى حد ما كنت أقدر أنهم ينتهون إليه ، فمنهم من شكا وألح فى الشكوى من الصحف الهازلة ، وأكد أن استعداء القانون عليها أمر لا بد منه لصلاح الأخلاق ، بل ذهب إلى أبعد من هذا ، فذهب إلى أن الذين تهاجمهم هذه الصحف لا بد لهم من أن يلتمسوا للدفاع عن أنفسهم وسائل أخرى إذا لم تكف وسائل القانون لتحقيق هذا الدفاع . ومعنى ذلك أنهم يحمدون ما يجدون من ضيق النفوس وحرج الصدور ، أو يلتمسون لأنفسهم ولغيرهم المعاذير من اضطرارهم إليه ، بل من اضطرارهم إلى الشر الخالص والانتقام للنفس إذا لم يوفق القانون إلى حمايتهم من هزل الهازلين . وما أعرف دليلا أظهر ، ولا حجة أنصع على ضيق النفس وحرج الصدر من موقف هذا الذى تدعوه إلى الأناة والحلم ، وتذكره بضبط العواطف ، وقهر ثورة النفس فلا يزداد إلا حدة وغلوا فى الحدة يدفعه لا إلى النكير ، بل إلى النذير ! ومنهم من اتخذ الحديث فى هذا الموضوع وسيلة إلى إرضاء طائفة من العواطف والشهوات من الخير ألا ترضى ! فأخذ يحمل أغلاط بعض الناس على بعض ، ويضيف إساءة المسيئين إلى من يسيئون ، ويقيم على ذلك الحجج ، ويلتمس إليه الوسائل كأنما يريد أن يتخذ هذه الصحف الهازلة وسيلة إلى مهاجمة الصحف الجادة ، وأن يتخذ هؤلاء الكتاب الهازلين طريقا إلى مهاجمة الأحزاب

---

(١) ٣٠ ــ ٥ ــ ١٩٣٣ .

السياسية التى يقول هؤلاء الكتاب إنهم ينتمون إليها ويدعون لها .

وكذلك لم يتحرج صديقى هيكل من أن يذكر الصحف التى تنشر صورا بالزنكوغراف لرئيس الوفد وسكرتيره ، وتدعو فى بعض صحفها للوفد ، ثم تسلك طرقا أخرى فى موضوعات أخرى غير السياسة ، ولم يتحرج هيكل من أن يشير إلى أن الوفد يشجع هذه الصحف ، وتشجيعها إثم ، وإلى أن الوفد يحتمى بهذه الصحف ، والاحتماء بها لا يليق !!

وكنت أحب لهيكل أن يكون أوسع نفسا ، وأرحب صدرا ، وأرجح حلما من أن يتورط فى هذا كله ، أو يذكره تصريحا أو تلميحا أو إشارة ، فليس فى هذا كله خير ، وليس فى هذا كله حق ، وليس فى هذا كله فهم صحيح لحقائق الأشياء فى الحياة الديمقراطية .

وهيكل بعلم حق العلم أن الذين يحبون الحياة الديمقراطية ويحرصون عليها مخلصين ، لا ينبغى أن يستمتعوا بخيرها ويضيقوا بشرها إلى هذا الحد ، وإنما ينبغى أن يقبلوها كما هى ، وأن يجدوا ما استطاعوا فى إصلاح شرورها وعيوبها ، لا بالعنف ولا بالشدة ، ولا بضيق النفوس وحرج الصدور ، ولكن بالأناة والحلم ، وبضبط النفس وقهر الهوى ، وبالدعوة إلى الخير بالحجة والموعظة الحسنة ، لا بالاستعداء ولا بالنذير .

والوفد كغيره من الأحزاب الديمقراطية له صحفه الرسمية التى تصف آراءه وتصور مذاهبه ، وتدعو بلسانه ، فهو مسئول عن هذه الصحف ، ولكن هناك أشباعا للوفد كثيرين ، يتصلون به ، وينتصرون له ، ويدعون إليه بالكلام حينا ، وبالكتابة فى الصحف حينا آخر . وهؤلاء لا يستشيرون الوفد ، ولا يصدرون فيما يكتبون عن وحى من الوفد ، ولا يوجههم الوفد فى الطرق التى يسلكونها . ومن حق الوفد لنفسه أن يشجعهم حين يدعون إلى مذهبه ، وينتصرون لمبدئه . وليس من حق أحد أن ينكر ذلك على الوفد ، أو يلومه فيه . وليس من حق أحد أن يسأل الوفد عما يتورط فيه هؤلاء الناس من خطأ ، أو عما يذهب إليه هؤلاء الناس من غلو وإغراق . وليس الوفد فى ذلك بدعا من الأحزاب السياسية ، وليست مصر فى ذلك بدعا من البلاد الديمقراطية . فلكل حزب سياسى قوى أنصاره وأتباعه

وأشباعه الذين ينصرونه ويغلون فى نصره ، والذين لا يتحرجون أحيانا من أن يستغلوا اتصالهم به ، وانتماءهم إليه . وفى كل بلد يحيا حياة ديمقراطية صحف هازلة تغلو فى الهزل ، وتسرف فى تتبع العيوب ، وتنتمى مع ذلك إلى الأحزاب السياسية فلا تسأل عنها الأحزاب ولا تؤخذ بجرائرها .

ولعل هيكلا يذكر أنه قد كانت فى مصر صحف هازلة تتصل بحزب الأحرار الدستوريين ، وتنتصر له ، وتدعو إليه ، وتلقى منه رضى وتشجيعا . ولعل هيكلا يذكر أن هذه الصحف كانت فى ذلك الوقت تهاجم خصوم الأحرار الدستوريين مهاجمات كثيرة الشر ، شديدة النكر ، فيها اعتداء على الأعراض ، وفيها انتهاك للحرمات ، وفيها اقتراف للآثام . ولعل هيكلا يذكر أن حزب الأحرار الدستوريين لم يبرأ من هذه الصحف حينئذ ، ولم يردها عن غيها ، ولم يزجرها عن آثامها ! ولعل هيكلا يذكر أن هذه الصحف نفسها تحولت مع الظروف عن حزب الأحرار الدستوريين فأصلته ما كانت تصلى خصومه من نار .

فماذا كان يقول هيكل لو أن خصوم الأحرار الدستوريين يومئذ أخذوهم بإثم هذه الصحف وحملوهم تبعات ما كانت تنشر ، وما كانت تذيع ، وماذا كان يقول هيكل لو أن هذه الصحف لم تتحول عن الأحرار الدستوريين بل ظلت موالية لهم ، داعية إليهم . وظلت مع ذلك مقترفة لما كانت تقترف من إثم ، مغرقة فيما كانت تغرق فيه من عدوان ؟ ماذا كان يقول هيكل لو أن الذين تشتمهم هذه الصحف وتسبهم زعموا للأحرار الدستوريين أنهم مسئولون عن شتمها وسبها لأنها تدعو لهم فى صفحة أو صفحتين ، وتنشر صورهم ، ثم تمضى بعد ذلك فيما لا يرضاه الأدب ولا تقبله الأخلاق ؟ ماذا كان يقول هيكل ؟ كان يقول إنه غير مسئول إلا عما يكتب ، وأن حزبه غير مسئول إلا عما تنشر صحيفته الجادة الرسمية ؟ وكذلك ينبغى أن تقول الأحزاب كلها ، فهى لا تسأل إلا عما تقوله حقا وتوحى به حقا . فأما الذى تقوله الصحف التى تنتمى إليها وتدعو لها ، فهذه الصحف وحدها مسئولة عنه ، مأخوذة به .

وما الطريق إلى سؤال هذه الصحف عما تكتب وأخذها بما تذيع ؟ هناك طريقان : طريقة الإلتجاء إلى السلطان ، والاستعداء للقضاء ، وهى طريقة

لا غبار عليها من ناحية الأخلاق الخالصة ، ولكنها تدل على ما سجلناه من ضيق النفوس وحرج الصدور ، والخروج عن الأطوار . وهذه خصال إن قبلت من عامة الناس فهى تستغرب من الذين يحيون الحياة السياسية ، ويحتملون أثقال الجهاد السياسى . وليس من الحق فى شىء أن الجهاد السياسى إنما هو المناقشة البريئة الخالصة للحق ، الخالصة لقواعد الأدب والأخلاق فحسب ، وإنما الجهاد السياسى هو هذا ، وهو أشياء أخرى غير هذا ، فيها التعرض للأذى ، وفيها احتمال الظلم المنكر ، والجور الصارخ والاعتداء على الكرامات والانتهاك للحرمات والصبر على هذا كله ، والإغضاء عن هذا كله ، والانصراف عن هذا كله إلى ما يليق بالرجل الكريم . ولو أن الذين يشتغلون بالسياسة ويحتملون أثقال الجهاد فيها فرغوا لمحاسبة الناس بأنفسهم أو بطريق القضاء على ما يكتبون عنهم ويقولون فيهم لأنفقوا فى ذلك خلاصة جهدهم ، وصفوة حياتهم ، ولشغلوا به عن الجهاد المنتج الصحيح .

وإن من الغريب حقا أن يظن صديقى هيكل أن صدرى يضيق لو قالت فى الصحف الهازلة بعض ما تقول فى غيرى من الناس فى هذه الأيام . عفا الله عنك أيها الصديق ! فما كنت أظن أن النسيان يمس ذاكرتك إلى هذا الحد ! ما أعلم أيها الصديق أن أحدا من المعاصرين عبثت به الصحف الهازلة والجادة ، ونالت منه بمقدار ما عبثت بى ونالت منى ، وإنك لتذكر — إن لم تكن قد نسيت أن صحف الجد والهزل قضت أشهرا وأعواما لا حديث لها إلا أنا ، تقول فى ما تشاء فى غير حساب للنفس ، ولا مراقبة للقلم ، ولا استحياء من الضمير ، وهى لا تذكرنى وحدى ، وإنما تذكر معى من لا ينبغى أن يذكر ، ولعلك تذكر — إن لم تكن قد نسيت — أننى أعرضت عما قالت ، وما زلت عنه معرضا ، لم أبد لها صفحة ، ولم أهتك لها سترا ، ولم أستعد عليها القضاء ، ولم أشكها إلى السلطان وإن فى قليل جدا مما قالت لما يكفى لاستعداء القضاء والالتجاء إلى السلطان .

هذه إحدى الطريقتين ، وهناك طرق أخرى لأخذ الصحف الهازلة بإسرافها فى الهزل ، وهى لقاء الهزل بالهزل ، والعبث بالعبث ، والعدوان بالعدوان ، وهى

طريقة قد تنكرها الأخلاق الخالصة ، ولكنها مركبة فى طبائع الناس ، يلجأون إليها دائما ، ويسلكونها دائما ، ويلجأ إليها أصحاب السياسة بنوع خاص ولا يقل صديقى هيكل إن الأحرار الدستوريين لا يحبون هذه الطريقة ولا يميلون إليها ، فقد يكون هذا حقا إذا خلا الأحرار الدستوريون إلى ضمائرهم ومثلهم العليا فى الأخلاق ، ولكنهم حين يخوضون غمار الحياة السياسية يسيرون فيها سيرة غيرهم من الأحزاب ، وقد كانت لهم صحفهم الهازلة وكانت تظفر منهم بالنصر والتأييد فإذا لم تسمح لهم الظروف الآن بطائفة من هذه الصحف فليس ذلك ذنب خصومهم ، وليس ذلك مصدر اللوم لهؤلاء الخصوم .

وبعد ، فما كنت أريد أن أذكر فساد الأخلاق حين كتبت ما كتبت أول أمس ، فلست أعتقد أن أخلاقنا السياسية من حيث نحن معارضون فى هذه الأيام شر من أخلاقنا السياسية فيما مضى ، فقديما كان فى سياستنا الجد والهزل ، وقديما كان فى سياستنا الإسراف والاعتدال ، لم تزدد أخلاقنا السياسية فسادا ، ولعل ما تنشره الصحف الهازلة اليوم أن يكون خيرا مما كانت تنشره أمس ، ولعله أن يكون أدنى إلى شىء من الاحتياط ونقاء اللفظ مما كان ينشر قبل الحرب ، ومما كان يرسل إلى محمد عبده وقاسم أمين ، لأن أخلاقنا قد ارتقت من غير شك ، ولأن آدابنا قد تطورت إلى الخير ولو قليلا من غير شك ، إنما الذى أردت أن ألاحظه وأسجله هو ضيق بعضنا ببعض ، وامتلاء صدورنا بالحرج لأيسر الأشياء وأحقر الأمور .

ويذكر صديقى هيكل أن تكون الأزمة السياسية والاقتصادية هى التى ملأت صدور الوزراء والنواب والشيوخ حرجا بالنقد حتى حين يصدر من بعضهم لبعض ، لأن الوزراء وأنصارهم من النواب والشيوخ لا يشقون بهذه الأزمة ، ولأن الصحافيين حتى من المعارضين لا يشقون بها كما يشقى بها الفلاح . وكنت أحب لصديقى هيكل أن يكون أحسن تقديرا لهذه الأشياء مما ظهر فى مقاله أمس ، فليس يألم من الأزمة السياسية والاقتصادية ويضيق بها من يصلى شرها وحده ، بل يألم لها أيضا من يدافع عنها ، ويحاول حمايتها ويحاول فرضها على الناس ، ويحاول أن يصورها فى صورة الخير وأستطيع أن أؤكد لهيكل أن الوزراء

والنواب والشيوخ يشقون بدفاعهم عن موقفنا السياسى والاقتصادى أكثر مما نشقى نحن باحتمال هذا الموقف ، وما يستتبعه من الآلام ! وإن هؤلاء الوزراء والنواب والشيوخ خليقون بالرثاء والإشفاق لأنهم يقفون موقفا كله حرج ، ويدافعون عن موقف لا سبيل إلى الدفاع عنه ، ويحمدون موقفا هم يعلمون فيما بينهم وبين أنفسهم أنه لا يحمد . فهم خليقون أن ينفقوا فى موقفهم هذا ما يملكون من جهد ، وهم خليقون أن يضعف حظهم من المقاومة لما يوجه إليهم من نقد .

ليصدقنى هيكل إن الموقف السياسى والاقتصادى الشاق الذى اضطرتنا إليه الوزارة القائمة ، والذى طال أمده ، وثقل عبئه على أنصاره وخصومه معا ، هو مصدر ما يملأ صدور الناس من حرج لكل شىء ، وتبرم بكل شىء . إن كمال الرجولة يقضى علينا أن نقاوم هذا الحرج ونبرأ من هذا الضيق ، ونأخذ أنفسنا بالصبر والثبات ، ونروضها على احتمال الأذى والمكروه ، ونصرفها عن كل ما يدل على ضعف المقاومة أو خور الطبيعة ، أو انحلال العزيمة أو الخروج عن الطور .